

الحياة الثقافية وواقع الحركة اللغوية في الجزائر

ما بين القرنين العاشر والثالث عشر للهجرة

الأستاذ : غربي مصطفى

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة سيدي بلعاس

الحياة الثقافية في العهد العثماني بالجزائر، وثيقة الصلة بغيرها من مناحي الحياة الأخرى، فانشغال الأتراك بأمور الحرب وورد العدوان الصليبي، وطبيعة المجتمع الجزائري بخصوصياته العربية الإسلامية، عوامل شكلها ساعدت على انتشار طواغير «التصوف والدروشة، وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين، والثقافة الموسوعية والحفظية»¹.

في هذه الأجواء المتميزة سادت الثقافة في العهد العثماني بالجزائر، وتوزعت على مراكز عديدة «كل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه أحسن قيام، حسبما تتطلبه ظروف العصر، وتتضمنه قوانين القدر وعوائد سكانه»² الاقتصادية العامة.

وقد كان للزاوية في هذا الشأن حضور قوي ومسعى حميد، حين عهدت إلى نفسها الذود عن عقيدة الأمة ومعتقد البقاء منها، بالبحث على السمو بالنفس وصيانة لغة الضاد عماد الدين ولسان حال المجتمع، فكان قسم من هذا المركز العلمي يقوم «بتدريس التفهيمات والعقائد والتجو والصرف والبلاغة»³ وغير ذلك من علوم العصر وقرونه. وبذلك تكون الزاوية، بإشراف الطرق الصوفية، «قد لعبت دوراً أساسياً في نشر الثقافة في الأرياف، فأوجدت بذلك نوعاً من التوازن بين الريف والمدينة، وحالت دون أن تتطور الثقافة في المدن دون الريف»⁴.

وقد عزز هذا الدور الثقافي المتميز ظهور عائلات جزائرية «اهتمت بنشر العلم والحفاظ على مستوياته التعليمية المعروفة: المسجد والزوايا والمكتبات القرآنية التي «كانت غالباً فروعاً للمسجد والزوايا»⁵. والمدرسة «كانت قبلة لفئة من المتعلمين الذين ينشغون بالمعرفة بمختلف أصنافها، ومن المؤكد أن هذه «الأمكنة المخصصة لإلقاء الدروس بها»⁶، «كانت لها موارد من الأوقاف» وتنتشر في أهم المدن مثل: الجزائر وتلمسان وقسنطينة وغيرها»⁷.

وقد تربع على التدريس في بعض هذه المراكز الثقافية مدرسون بارزون من أمثال عمر المتقلاطي الجزائري (ت1100هـ)، وأبي راس الناصري (ت1238هـ) ومحمد الصالح الرحموني (ت1242هـ)⁸، وغيرهم ممن توزعت مهامهم التعليمية على مواد العصر وتخصصاته، فبعضهم اشتهر «بتدريس مادة معينة كالفقه أو التجو، وبعضهم كان يجمع في دروسه عدة علوم، وقد «كان الغالب عليهم الجمع بين علوم مختلفة»⁹.

أما المكتبات العامة والخاصة في هذا العهد، فقد اجتهد القائمون عليها في توفير الكتاب لمد جسور التواصل بين مختلف فئات المثقفين وشرائحهم من أساتذة ومعلمة، والذين «كانوا يرتادونها» من جميع النواحي للمطالعة فيها، لاسيما المكتبات العامة التي «كانت وفقاً وحسباً على المساجد والزوايا والمدارس»¹⁰.

هذه بعض جوانب المشهد الثقافي في العهد العثماني بالجزائر، وهي في ظاهرها جوانب تجعلنا «أمام ثقافة هي في صميمها الثقافة العربية الإسلامية المشتركة والشائعة عندنا في العالم العربي الإسلامي، فمناهج التعليم كانت واحدة، وحدود الأفكار واحدة ومعاهد العلم التي ارتادها علماء الجزائر متشابهة، والطرق الصوفية التي انتموا إليها هي هي، سواء أخذوها في المغرب الأقصى أو في العراق»¹¹، وقد تبين هذه الحدود الضيقة لمفهوم الثقافة ومعناها الواسع والمتعدد، بأن الجزائر عموماً «لم تكن أيام العهد العثماني آخذة بأسباب التقدم العلمي، ولم تكن سائرة بخطى حثيثة في مضمار العمران إنما كان شأنها في ذلك شأن بقية بلاد العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها»¹².

والحركة اللغوية في العهد العثماني بالجزائر، تمثل وجهاً من أوجه الحياة الثقافية التي سادت البلاد طيلة قرون ثلاثة، وقد وجد علماء اللغة في تلك الفترة رغبة جامحة في تفعيل الدرس اللغوي والتمسكين للغة الضاد لسان حال الأمة، تحت تأثير عاملين أساسيين هما :

أ - قوة الصلة التاريخية والحضارية التي تجمع الجزائر بالشرق والمغرب على حد سواء، وما كان لذلك من أثر برب في حمل الأعلام في العهد العثماني على الإقبال على تراث أمتهم العربية والإسلامية يؤلفون في اللغة، ويحفظون بالمتون، كلما حضرتهم رحلة إلى قطر أو عرض لهم لقاء بعالم منه مثلاً تكرر في مناسبات عدة.

ب - أن النتائج المعرفية بمختلف أصنافه في تلك الفترة «كانت خارج نطاق السلطة، فأصحابه لم يجدوا التنبه ولا التشجيع من الحكام العثمانيين»¹³ ومن الأهم من الوجهاء.

وقد توزعت اهتمامات أولئك العلماء بين التدريس والتأليف على حد سواء، وفي مختلف فروع اللسان من نحو وصرف وغيرهما، بعضهم عقد المجالس وجمع التلاميذ ويسمى للوضوعات، فذاق صيته بين العامة والخاصة، وبعضهم اتبى في إعداد المصنفات لتبقى آثاراً تخلد ذكراً، وتشهد على تفرده في التعامل مع الموروث اللغوي العربي بأبعاده المعرفية والحضارية على حد سواء، «وقد كان العالم يجمع بين التأليف والتدريس، ومن الذين جمعوا بين الاثنين في الجزائر أبو راس الناصري، ويحيى الشاوي، وعبد الكريم الفسكون، غير أن هؤلاء لم يكتفوا في توازن في الجمع بين الخطتين، فالأول مثلاً قد غلب عليه التدريس رغم كثرة تأليفه، والثاني غلب قد عليه التأليف رغم كثرة تدريسه»¹⁴.

وقد أفاد اللغويون الجزائريون في تلك الفترة من رحلاتهم الخارجية «لمطلب العلم أو مجاورة بيت الله الحرام»¹⁵، فجالسوا كبار العلماء ولأزموا مشاهيرهم مما ساهم في ترسيخ معالم دراستهم اللغوية وتوسيع دائرة انتشارها. وقد شملت حركة هؤلاء الأعلام بلاداً قاصية وأخرى دانية، منها فاس، وسراغش، وتونس، والقاهرة، ودمشق، ومكة، والمدينة، وتركيا وبلاد الروم وغيرها¹⁶ من العواصم التاريخية والثقافية.

وبين اهتمامات العلماء وتشاغلهم اقتصرت الدراسة اللغوية في العهد العثماني بالجزائر بأسماء شخصيات بارزة، حصرتها بعضنا جملة من مصادر الباحثين¹⁷ فيما يلي:

- الوترشيري (عبد الواحد) (ت 955هـ) - المقرئ (أحمد التلمساني) (ت 1041هـ) - الفسكون (عبد الكريم بن محمد القسنطيني) (ت 1073هـ) - الشاوي (يحيى) (ت 1096هـ) - الصنهاجي (عثمان) (ت 11هـ) - الداوي (أبو

القاسم (ت 1129هـ) - البوني (أحمد بن قاسم) (ت 1139هـ) - محمد بن أب المزمري (ت 1160هـ) - التلمساني (عبد الرحمن) (ت 1179هـ) - الجزائري (علي بن أمين) (ت 1186هـ) - التورجي (أحمد بن زيان) (ت 1193هـ) - الورتاقي (الحسن بن محمد) (ت 1193هـ) - ابن شعيب (محمد بن أحمد) (ت 12هـ) - المستغامي (معموز) (ت 2هـ) - الثميني (عبد العزيز) (ت 1223هـ) - أبو راس الناصري العسكري (ت 1239هـ) - الرحموني (محمد الصالح) (ت 1242هـ) .

وإلى جانب ذلك اقتصرت تلك الاهتمامات، وما رافقها من حركة لغوية دائبة، بعناوين نحوية وصرفية هامة، منها ما توارى من الأيدي والأقلام بفعل تزاخم الأحداث ووطأة الزمان، ومنها ما لا يزال يقبع في خزان التراث الثقافي ينتظر من يخرج به إلى النور ويهبط عنه أدنى الحجر والنسيان¹⁸، وبعضها طالته يد البحث بالتحقيق أو بالتحقيق والدراسة معا، فكان له حظ الانتعاش وفضل الإفادة العارمة، من ذلك :

إعراب القرآن

من تأليف أبي العباس المقرئ التلمساني (986-1040هـ)، عرض فيه صاحبه لإعراب جملة من الآيات الكريمة، حسب ترتيب السور، وضمته مجموعة مسائل صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية، مع ما يرافقها من شواهد من القرآن، والقراءات، والحديث النبوي الشريف، وآراء العلماء، وكلام العرب شعره ونثره¹⁹، والظاهر أن أبا العباس المقرئ قد سلك في هذا المنحى طريق غيره ممن ألف في إعراب القرآن من أمثال يحيى بن زياد القراء (ت 207هـ)، وأبي مروان عبد الملك بن حبيب المالكي القرطبي (ت 239هـ)، وأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت 248هـ)، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 286هـ)، وأبي جعفر بن النحاس (ت 338هـ) وأبي إسحاق الزجاج (ت 311هـ)، وغير هؤلاء ممن أتى بعدهم²⁰.

فتح العلي في أرجوة المكودي في التصريف

مصنف أشار عبد الكريم الفسكون التسنعليني (988-1073هـ) في بدايته إلى الدافع إلى تأليفه ومحتواه، بقوله: «أما بعد: فلما كان العلم من أسنى المطالب، وأعلى المكاسب، والبلغ في الدارين أرفع المراتب، وكان علم التصريف من أعظم ما يطوي عليه الجنان، ويتعاهد اللسان، ويشرف به الإنسان، رغب متي بعض الطلبة أن أجعل لهم تقييدا على منظومة الشيخ العالم الملم التحوي اللغوي أبي زيد عبد الرحمن ابن علي ابن صالح المكودي، يحل ألفاظها ويعين على فهمها حفظها»²¹، وقد حرص عبد الكريم الفسكون في شرحه هذا على تتبع معظم قضايا التصريف التي عرض لها المكودي²².

فرغ الفسكون من تأليف مصنفه في يوم الأحد أوائل صفر الخير من عام ثمانية وأربعين وألف²³،

شرح لامية الأفعال لعبد الكريم الفسكون أيضا، مصنف عرض فيه صاحبه لمعظم قضايا التصريف التي تضمنتها قصيدة لامية الأفعال للإمام جمال الدين بن عبد الله بن مالك²⁴.

المحاصنات ليحيى الشاوي (1030-1096هـ) : مصنف بسط فيه صاحبه آراء كل من الزمخشري (ت 538هـ)، وأبي حيان (ت 745هـ)، وابن عطية (ت 541هـ) في إعراب آيات من القرآن الكريم، فالتصريف بعضها ورد بعضها الآخر، وبالتالي فهو كتاب ينطب عليه ملل ألفه، لما يتضمنه من قضايا نحوية وصرفية ومعجمية وغيرها²⁵ ختمه صاحبه بقوله: «وهنا انتهى ما التقطناه وتكلمنا ما ظهر لنا بما أهدينا في

تسليخ رمنشان وإبشا من وسط شعبان، مؤلفه يحيى الشاوي المغربي لسنة تؤخذ من اسمه وفيه وصلى الله على الحبيب وآله وصحبه والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم آمين»²⁶.

المختصر في أصول النحو

صاحبه يحيى بن محمد الشاوي، أيشا، وهو مصنف ينحصر في مقدمة، وكتاب في السماع، والإجماع، والقياس، والاستصحاب، والتعارض، والترجيح، وأدلة شتى 27 والظاهر أن يحيى الشاوي «كان قد جمع مسائل هذا المختصر من الخصائص لابن جني، وكتاب السراج، وكتاب سيويه، وهو لا يزال في سن الشباب، لكنها ظلت متفرقة في مسودات الورق إلى الوقت الذي تمكن فيه من علوم العربية فجمعها ورتبها على النحو الذي ظهرت عليه»²⁸.

مثيل الرد من لامية ابن الجرد

مؤلفه محمد بن أب المزمرى (ت 1160هـ)، وهو شرح دقيق لمنظومة العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمران المجردى السلاوي (ت 778هـ) في الجمل وأتوانها وأحكامها²⁹ فرغ محمد ابن أب من نسخته «عشية يوم الجمعة السابع عشر من صفر عام ثلاثة وأربعين ومائة والذ»³⁰،

روضة التمرين في مسائل التمرين

وهي منظومة تعليمية من تسعة وستين بيتا³¹، تخص فيها محمد بن أب المزمرى ما حوته شافية ابن الحاجب (ت 646هـ) من مسائل تصريفية منتقاة بهدف التدريب والتمرين، وهي للمسائل التي اتخذها ابن أب مجالاً للحديث عن موضوع بناء مثال من مثال، يقول في هذا التحق³¹ :

وبعد فاعلم أن هذا نظم يروق لكل من لديه فهم

سميته بروضة التمرين لجمعه مسائل التمرين

مما حوت شافية ابن الحاجب العالم التحرير ذي المواهب

وردت المنظومة متكاملة في شرح روضة التمرين في مسائل التمرين³²

، شرح روضة التمرين في مسائل التمرين

مصنف محمد بن أب المزمرى رأى أن ينثر فيه نظمه، روضة التمرين في مسائل التمرين ويشرحه، ليبين المراد من ألفاظه وييسر محاولة معناه على مسائل التمرين ويشرحه، ليبين المراد من ألفاظه وييسر محاولة معناه على حفاظه»³³

مؤنة الحواري في نظم مقدمة ابن أجيروم

وهي منظومة قسمها صاحبها محمد بن أب المزمرى إلى أبواب في اللزومات، والتنصيصات، والمخفوضات، وما يندرج تحتها من فصول في الفاعل والمفعول وغيرهما مما تضمنته مقدمة ابن أجيروم³⁴، وقد فرغ محمد بن أب من نظم مقدمة ابن أجيروم :

سنة أربع وأربعين للخمس والست من المئتين

في مائة وأربعين بيتاً هتتم حراً أنت إن أغضيتا³⁵.

المنظومة شرحها من المؤلفين المحدثين، الإمام والمدرس بالجنوب الجزائري محمد باي بلعالم في مصنفه الموسوم: الرحيق المختوم لزهة العلوم، وهو كتاب مطبوع.

حقائق على الأجرومية

مصنف في شرح الأجرومية، قال ابن شعيب في 12 هـ في سبب تأليفه: «لما طلبني بعض الإخوان أن أجمع لهم حقائق على الأجرومية وما تكان من لفظ شرحها، فسعفته في ذلك طلباً في أجزين القلوب، معتمداً في أكثر التقييد على شرح الصباغ»³⁶، وقد «أتبع ابن شعيب نفس التقسيم الذي اتبعه صاحب الأجرومية فلم يقسم المادة تقسيماً جديداً إذ نجد نفس الأبواب الواردة في الأجرومية»³⁷.

جاء في آخر مصنف ابن شعيب «ثم ما أراد الله تكويته على يد مجمعه محمد بن أحمد للكفسي بآبن شعيب العامري في شهر ذي القعدة سنة يوم الجمعة عام تسعة وعشرين من القرن الثاني عشر»³⁸.

الإحالات

1. تاريخ الجزائر الثقافية، أبو القاسم سعد الله، 14/1، ص 2، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.
2. التحفة الرضوية، محمد بن ميمون الجزائري القديم وتحقيق محمد بن عبد الصغيم الجزائري، ص 58، المؤسسة الوطنية للكتاب و التوزيع، الجزائر 1972.
3. نفسه ص 59.
4. تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص 317.
5. أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر للعاصرة بعمار ملاح، ص 103، (دمج)، الجزائر 1995.
6. التحفة الرضوية ص 59.
7. تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص 317.
8. براجع إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد رمضان شوش ص 439، مداود بريسكسي شمسان، 2001، وتاريخ الجزائر المتعبد الرحمن الجباللي، ص 570، (دمج)، 1982.
9. تاريخ الجزائر الثقافية 1/355 - 356.
10. التحفة الرضوية ص 61.
11. تاريخ الجزائر الثقافية 1/18.
12. محمد باشا داي الجزائر، توفيق المدني، ص 11، (مؤلف)، 1986.
13. تاريخ الجزائر الثقافية 1/121.
14. نفسه 1/363.
15. نفسه 430/1.
16. براجع العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3 هـ) بعمار ملاح ص 15 وما بعدها، ديوان المليونيات الجامعية 1995.
17. براجع تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد إبراهيم الحفناوي ص 191 و 221 و 70، مؤسسة الرسالة ط 1، 1982، ومجمع أعلام الجزائر عادل تويجيش ص 33 و 45 و 93 و 97 بيروت لبنان ط 1، 1971، وإرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر ص 421 و 434.

- الحياة الثقافية وواقع الحركة اللغوية في الجزائر
1. غربي مصطفي
- 451 و453 و478. وأبحاث وآراء، ج 1 تاريخ الجزائر 83/1 أبو القاسم سعد الله ، 83/1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 .
18. يراجع مخطوطات جزائرية على مكتبات استنبول ، محمد بن عبد المظفرم الجزائري ص 20 وما بعدها ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ص 1972
19. يراجع تحقيق إعراب القرآن العفري ، محمد بن أحمد المكناسي وابن شعب ، تحقيق ودراسة علي بوشافور ص 2 وما بعدها (ماجستير) جامعة وهران 2003.
20. يراجع لغراب القرآن لابن التماس 8/1 دار المكتب العلمي بيروت 2001
21. يراجع فتح الطيف على أرجوزة المصنف ، عبد المظفرم بن محمد القسطنطيني (73) أ هـ ، - دراسة وتحقيق - ابن إبراهيم السعيد ، ص 87.86 جامعة الجزائر ، 2004 (دكتوراه)
22. يراجع نفسه ص 565
23. يراجع نفسه ص 482
24. يراجع شرح لامعة الأفعال ، عبد المظفرم القسطنطيني - دراسة وتحقيق - زودة تميمي، ص 66. جامعة الجزائر. 2008 (دكتوراه)
25. يراجع المحاضرات ، لأسى زكريا يحيى الشاوي الجزائري إت (1096) ، قدور الشاوي الخضر 32/1 وما بعدها (ماجستير) جامعة وهران 2004.
26. نفسه 2/632.
27. يراجع لنفسه على أصول التمر ص 55 وما بعدها .
28. نفسه ص 18
29. يراجع قول الفراد من لامية ابن المجراد ص 5 وما بعدها .
30. نفسه ص 32
31. يراجع شرح روضة التمرين على مسائل التمرين لمحمد بن أبي القزيري (ت 1160) ، تحقيق ودراسة أحمد جعفري ص 121 (ماجستير) جامعة وهران 2003.
32. نفسه ص 121
33. نفسه ص 24
34. يراجع الرحيق المعلوم كثره الحليم ، محمد باي بلعالم ص 23 ، (ت 1144)
35. نفسه ص 114
36. حقائق على الأروية ص 1
37. نفسه ص 205
38. نفسه ص 181 .